مع تولستوي في كتابه

الحرب والسلم

كلمة تمهيدية

كنت أستمع ذات عشية إلى برنامج (الأمناء على العقل [1]) الذي تذيعه محطة الإذاعة البريطانية فأصغيت إلى محاورة طريفة تجري بين نخبة من أساطين الفكر في بريطانيا. ويلوح لي أن هؤلاء السادة المفكرين قد أدركوا ما تعرّض له العقل البشري الحرّ المنتج من حرج وعنت وخطر بسبب ما فرضته أحوال الحرب من قيود عديدة ومن خضوع للدعاية واستكانة للعاطفة المفرضة، فرأوا أن يصرفوه إلى معالجة المواضيع العلمية والأدبية البحتة، لعلّ الذهن بهذا الغذاء المفيد الصالح يخرج من غمرة الحرب، وقد نما وازدهر وجلى عن نفسه صدأ الخمول وفزع الأيام القاتمة، فيعود كما كان قبل الحرب بل أروع وأنشط.

أجل، لقد شُغفت بالاستماع إلى هؤلاء العلماء والأدباء الذين نصبوا أنفسهم أمناء على العقل بل حماة له، فجعلوا يعقدون جلسات دورية يتناولون في أثنائها البحث والإجابة عن أسئلة مختلفة ترد عليهم من أطراف المسكونة، فيجيب كلٌّ منهم بدوره مرتجلاً، مبيّناً رأيه في كل نقطة، فيحدث بينهم تارة جدل عنيف صاخب، وأخرى يسود الهدوء الشامل المثمر بالاتفاق. وأعجب ما فيه حقّاً وأكثره لفتاً لنظر المستمع الشرقي وجلبة لاهتمامه واحترامه اختفاء المنافسة الشخصية الحادة حين مداولة البحث، إذ تحفزهم روح العلم وروعة التهذيب على احترام آراء بعضهم بعضاً والسعي معاً الى بلوغ الحقيقة المطلقة. فيتناول عريف الجلسة ما يبديه الأعضاء من آراء، وبراعة نادرة يحاول تلخيصها والتوفيق بينها. ولا يكاد يشذ عن هؤلاء إلاّ الفيلسوف الانجليزي المشهور البروفسور (س. م. جود) [2] ذو النبرة الموسيقية الحلوة والعقل المهيمن والمعرفة الدقيقة الشاملة المؤذية أحياناً بسبب ذلك، والبديهة الحاضرة والمقالة اللطيفة تجري على لسانه فتطرب عقل السامع وقلبه معاً.

(١) Brain's Trust (٢) C. M. Joad

والفيلسوف (جود) قلّما يغلبه رأي أحد في أثناء النقاش . وكم من رؤوس صلبة تحطمت على صخرة رأسه !

في تلك الليلة سمعتهم يجيبون على هذا السؤال — : « لو قيل لك إنك بعد ستة أشهر سوف تبرح هذه الدنيا إلى عالم آخر ، فماذا عساك تصنع في خلال هذه المدة ؟ » .

سمعت الفيلسوف (جود) يصرح بأنه لن يبدل طراز عيشه ، بل يمضي في الحياة كأنما هو يجهل ساعة الموت . ويعلل ذلك ويدعمه بقوله إنه لو بدل عيشه — في البقية القليلة الباقية له من عمره ، لدل هذا على أنه يحيا حياة فاشلة ، وأنه يجهل جهلاً تاماً كيف يعيش عيشة مثالية مرضية » .

وقال العلامة جوليان هكسلي (٣) « يخيّل إليّ أنني سأقضي معظم الوقت في الاستماع إلى روائع بيتهوفن وشوبرت ومندلسن الموسيقية الخالدة ولسوف أظل أكرع من ينبوع هذا الفن الرفيع حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً » .

بيد أنه لفت نظري جواب أحدهم إذ قال : « أما أنا فلسوف أطالع قصة (الحرب والسلم) لتولستوي ، وأعيد قراءتها المرة تلو الأخرى ، حتى أستشبع من هذا الأدب الرائع وأتزود منه الزاد الكافي قبل تلك الرحلة الطويلة الشاقة » .

وفي جلسة ثانية سمعت غيرهم يجيبون على هذا السؤال : « لو قدّر لك أن تكون مؤلفاً قصصياً خطير الشأن ، فما القصة التي تختارها من بين قصص العالم وتتمنى لو كنت ألفتها ؟ » .

ومع أن بعضهم ذكر (البؤساء) لهوجو وديفد كبرفيلد لدكنز وغيرها إلا أنني كنت ألمس إجماعاً على كتاب (الحرب والسلم) لتولستوي .

وقال الناقد الأديب المشهور فورستر في إذاعة له « أنه لا نزاع ولا إشكال في أن قصة (الحرب والسلم) لأعظم ما أنتجه عقل أوروبي في هذا الباب » .

ولا أخال القارىء بعد ما سمع ذلك الاطراء عن هذا الكتاب إلا تائقاً لمطالعته . وهذا ما فعلته مدة شهر ، حلّقت في أثنائه على أجنحة الخيال إلى أوائل القرن التاسع عشر ، وألفيت نفسي حاءماً في أجواء روسية تارة ، وأخرى أوروبية طيلة الأيام التي قضيتها في صحبة هذا الفيلسوف العظيم ، حتى كدت أنسى أنني أعيش في منتصف القرن العشرين معاصراً لأعظم أحداث شاهدها التاريخ .

ولقد خطر لي أن أعرض للقارىء الكريم بعض الفصول التي وقفت عندها في أثناء

(٣) Julian Huxley

مطالعتي لهذه القصة ، عسى أن نجد في عرضها ومراجعتها غذاءً كاملاً لنفوسنا ومتعة وزاداً نتطلّع به في حياتنا الفكرية والروحية . فما أحوجنا إلى هذا الزاد في هذا العهد المقفرة الخالية من أطايب الفكر والروح ! بل ما أحوجنا إلى مطالعة تولستوي والحديث عنه . فإن إسمه بلسم يشفي جراح هذه الإنسانية الشاردة المعذبة ، ويلهي قلوب أهل الفكر الكبيرة ليلتف عليهم الحياة القاسية . ويبعث في نفوسهم القوّة على مواجهة أحداث الزمان بإيمان وثقة وصلابة .

إن إسم تولستوي رمزٌ لقوة الروح التي لا يلمسها صخب الأيام ومثالٌ للعقيدة الراسخة وعنوان للاصلاح الاجتماعي والمحبة الإنسانية الشاملة .

نظرة شاملة

تعتبر قصة (الحرب والسلم) أعظم ما أنتجه تولستوي لأنها تتناول موضوعاً تاريخياً خطيراً هو كفاح روسيا المرير ونضالها الجبار وعلى رأسها القيصر ألكسندر والقائد كوتوزوف ضد جحافل نابليون الغازية الفاتحة . وتبدأ حوادث القصة قبيل واقعة أوسترلتز . وفيها يعالج الكاتب الحرب كرمز للقوى الاجتماعية الكامنة الساعية للظهور بشتى السبل ، وليس كحركة درامائية يمثل أدوارها أفراد معدودون . ولهذا فإنها تؤلف وتجمع بين الواقعية والصوفية ، إذ تصوّر بمهارة وابداع هول المعارك وما يعتلج في نفوس المتحاربين من عواطف وأفكار . والكتاب يترك في نفس القارىء أثراً عميقاً بليغاً لا يخلو من التشويش فيشعر كأنه قد خرج من معمعة القتال بنفس مفعمة بدخان الحرب ودوي المدافع ، مثقلة بالذكريات الرهيبة والأشباح المرعبة . إنما أثر واحد يظلّ بالغ الانطباع في النفس كالأثر الذي يبقى في نفس الجندي حين يخرج من حرب ضروس وقد عزا نجاته منها إلى عامل الحظّ أو الصدفة أو القضاء الذي يلعب أدواراً كبيرة في حياة المقاتلين بل في مجرى جميع الحوادث التاريخية أيضاً .

تقع قصة (الحرب والسلم) في مفترق السبل التي سلكتها القصة منذ القدم ، وكانت في مقدمة الكتب التي مهّدت السبيل لظهور هذا اللون من الأدب القصصي الذي يتجلى فيه الأسلوب الحديث ولو لم يسبقه إلى القصص الانجليزي المشهور ريتشاردسن Richardson لصحّ القول بأن (الحرب والسلم) تمثّل الحدّ الفاصل بين أسلوبي القصة القديم والحديث ، ففيها انتقال من القصة التي تتميّز بالتمثيل في الكلام وعدم تدخل المؤلف بصورة مباشرة فيما يقوله أشخاص القصّة أو يفعلون كما هو ظاهر في بعض قصص دوستويفسكي إلى تلك

التي يعبّر فيها الكاتب عن رأي خاص ووجهة نظر معينة في كل ما يعرض له من مواضيع وأحداث ، فيقف بين الفينة والفينة وقفات قصيرة أو طويلة حسب مقتضى الحال ليعلل ويحلل ويبسط ويطنب .

ولقد تسرّب العامل السيكولوجي إلى سرد الحوادث وبحث الأوضاع الاجتماعية والسياسية والروحية ووصف الأشخاص . وبرع تولستوي في الغوص على مكنونات النفس البشرية واستخراج دقائق العقل الباطني إلى حدّ يُخيّل معه إليك أمام عقل وعى أصول السيكولوجيا الحديثة . لقد كانت القصة تمتاز من قبل بوصف الكاتب أفعال الأشخاص وسرد أقوالهم دون تعليق عليها ، أما تولستوي فقد تطرّق الى بسط الأسباب وايضاح العلل وشرح الدوافع الخفيّة التي تحرّك أشخاص القصة وتحفزهم للعمل ، كما يتجلى على الخصوص في (الحرب والسلم) و(أنَّا كارانينا) ولهذا باستطاعتنا تقسيم مؤلفات تولستوي في باب القصة ومن حيث مراعاة التحليل السيكولوجي إلى قسمين الأول وهو دور مران وتحضير والثاني وفيه ألّف (الحرب والسلم) و(أنَّا كارانينا) على نسق جديد ، بيد أنه في (الحرب والسلم) أكمل فنّه وصقّله وجمّله ، وجعله غاية في نفسه .

ولقد اتخذ تولستوي لقصة (الحرب والسلم) جوًّا تاريخيًّا زادها قيمة وروعةً وبهاء وقرّبها من الحياة الواقعية ، وقدّمها للناس أدباً ممتازاً ، فتكاد لاتدري وأنت ماض في مطالعتها أفي الماضي تعيش مع أولئك الناس الذين امتلأت نفوسهم وأذهانهم باسم نابليون ، أم في الحاضر بمشاكله وشؤونه المختلفة كل الاختلاف ، بل إنك في الواقع تحار في ما تقرأه ، أحقيقة تحسبه أم خيالاً ؟ لأن تولستوي كان بارعاً في اكساء الحقيقة ثوباً موشّى زاهياً من الخيال الوثّاب ، وريشة فنّان ماهر طلج تيار الحوادث التاريخية التي يطرب لها الأدباء ولا يأبه لها صغار المؤرخين ، فيندر أن نعثر عليها في كتب التاريخ . تلك الحوادث الفردية والاجتماعية التي تجمّعت وتكوّنت وسارت فيها بعد تاريخاً قويًّا تدفّق وفاض في المجتمع الروسي ، وغمر العائلة الروسية والاوروبية كذلك وسهما قيل ضدّه من عدم اتقانه إبراز صورة لنابليون برهن عنها التاريخ ، ومهما أثير من جدل واعتراض حول تعليله أسباب الحوادث التاريخية ، فاني أراه سيّداً لا يُدافع وفناناً ذا عين نافذة دقيقة التصوير ، وذهنية جبارة تبصر أكثر وأبعد مما يستطيع المؤرخ أن يفعله . بل إن قصة (الحرب والسلم) تصحّ أن تسمى الحلقة المفقودة بين الحقيقة والخيال ، وبين الأدب والتاريخ ، ذلك أنها مزيج رائع من الحقيقة والخيال وصورة فاتنة خلاّبة يتعانق فيها الأدب والتاريخ .

وفي (الحرب والسلم) ابتدع تولستوي فنًّا جديداً خالداً هو فن القصة المطلقة المكشوفة

التي تعرفك في بدء الأمر على مجتمع غريب عندك ، ثم تدنيك من أفراده وتؤاتي عرى الألفة والصداقة بينك وبينهم لمدة طويلة . وحين يفرض عليك القدر القاسي مفارقته ، تجد أنه قد ظلّ ماضياً في سبيله دون أن تعرف له نهاية . على الضد من ذلك ما تعوّدنا مطالعته من القصص التي نرى لها بداية واضحة وتصل فيها إلى نهاية محدودة تسكن عندها كل حركة ، وتكاد تقف كل نبضة من نبضات الحياة ، كأن لها بابا تلجه في أول الأمر ، ثم ما تلبث أن توصده خلفك حين تفرغ من مطالعتها . من هذا النوع مثلاً (سرق الغرور) لثاكري ، و (الطاحونة على نهر فلوس) للكاتبة الانجليزية المعروفة بجورج أليوت وغيرهم

أما (الحرب والسلم) فتكاد تجيء في صعيد واحد مع الالياذة والأوديسا ، ذلك أن تيار الحوادث وسيل الحوادث وسير الزمان لا يقف في أيّ منها إلى حدّ أو يبلغ نهاية رغم انتهاء الكتاب ، بل يظل جارياً جارفاً أبداً ، متدفقاً أبداً . وفي كل مرة يبدو لك فيه أن القصة أوشكت أن تنتهي ، تجد حوادث جديدة قد تولدت وانبعثت وراحت تسعى إلى ما لا نهاية له ... وهذه ميزة تنفرد بها قصة (الحرب والسلم) وحدها ، ولا توجد في كتب تولستوي السابقة أو في قصص غيره من الأدباء . لهذا فان قصة ما لم تحز ما حازته (الحرب والسلم) من شهرة واسعة في أوربا ولا سيما في بريطانيا . فقد سماها الكاتب القصصي المشهور (غالزوورذي : أعظم قصة ألفت) . وقال عنها الناقد الأدبي (لبوك) (أنها صورة الحياة لا يعلو عليها شيء ! إن أول واجبات الكاتب القصصي خلق الحياة ، وهنا نرى كيف تخلق الحياة بحق إذ أن قصة غيرها لم تتناول عامة الناس على مثل هذا النطاق الواسع الذي تلمحه في الحرب والسلم) . فبيير وآندرو وناتاشا وغيرهم من شخوص القصة جميعهم من أبناء الأمس واليوم والغد ، ولا ينفرد أحد بشيء من كل الناس في كل الأزمان !

ويقول الناقد الانجليزي فورستر في كتابه (جوانب من القصة) لم يتسنّ لكاتب غير تولستوي وضع صورة كاملة لحياة الانسان في المظهرين البيتي والطولي ، المتمثلين في البيت وفي ميدان القتال . والقارىء لن يضيق ذرعاً بهذا الكتاب أو يعتريه ملل وسأم من قراءته لأن حوادث القصة ترفعه على أجنحتها رفعاً وتجري به فوق الفضاء وفوق الزمان مخلفة في نفسه أثراً كأثر الموسيقى الخالدة . فيشعر حين يقطع شوطاً في قراءتها كأنما أوتاراً عظيمة قد تحركت خلفه باعثة أنغاماً شجية ساحرة . أوتاراً آتية بالنغم المنبعث من مساحات روسيا المتدة الشاسعة ، قد انتثرت فوقها جسور وغابات وحقول وأنهار وجسور وجرت عليها أحداث ومخاوب وتحركت فوقها أمم وشعوب . فتمتلىء نفسك حين تمر بها

أو تستعرضها معاني عالية ومشاعر سامية وألحاناً مدوية رائعة. كثيرون هم الذين يتحسسون الزمان بالزمان حين يكتبون، بيد أن الذين يتحسسون بالقضاء قلائل. ومنهم تولستوي فإنك تشعر أن كل حادث في القصة بل كل عنصر منها حتى حالة علاقته بالفن العسكري يكاد يجذب وراءه حياة زاخرة بالناس من كل جنس ولون ووجوداً هائلاً تحس به وتدركه فتنطوي في نفسك كل الحياة » اه

ولقد أجاد الأديب الفرنسي دي فوج الثقة في الأدب الروسي حين قال « من اليسير ادراك ما يخامر القارىء من شعور وهو يطالع (الحرب والسلم) أو (أنا كارانينا) . فانه يرى نفسه بادىء ذي بدء حائر العقل، مبلبل الذهن لا ينساق مع حوادث القصة بسهولة ثم يعتريه سأم وكلل عقلي ما يلبثان أن يزولا بعد أمد قصير ، إذ تحمله حوادث القصة حملاً وتدفعه مع حركتها الدائمة دفعاً وتأسره بما فيها من مشاعر متنوعة وألوان من الحياة مختلفة ، وتجعل له من بين أشخاصها أصدقاء يحب أن يدنو منهم ويعاشرهم ، وأن يسبر أغوارهم ويبحث عن مصائرهم في الحياة . بل أن يشعر حين ينجز قراءتها بما يشعر به كل فرد من لوعة البين وأذى الفراق حين يودع أسرة نشأ في ظلها وتربى مع أبنائها ، وعاشهم أعواماً طويلة . ان قصة (الحرب والسلم) صورة صادقة لحياة مسافر رماه الدهر بصحبة فئة من الناس الغريبين عنه ، فالعيش معهم يبعث في نفسه القلق والضجر والكدر في بدء الأمر ، ثم سرعان ما ينكشف له ما غمض عليه من أمرهم ، ويبدو مألوفاً محبباً لديه ما غرب من طبعهم ، فيجذب إليهم ، ويتعود طريقتهم في الحياة ، ويمتزج بهم حتى يرى نفسه واحداً منهم ، فلا يعود يطيق الافتراق عنهم . وهذا شأن القارىء مع هذه القصة العظيمة » .

ولا بد أخيراً من الاشارة الى أن تولستوي كان حاذقاً في تقسيمه أشخاص القصة الى فريقين عائلي وتاريخي دون الخلط بينهما بما قد يزيد في تعقيد عناصر القصة أو تشويش حوادثها . وقد يفيدك ان تذكر وأنت تطالع (الحرب والسلم) أن تولستوي كشأنه في معظم قصصه قد صور بعض جوانب خلقه ومظاهر شخصيته وطرفاً من حياته في البرنس أندرو ، هذا البطل الانساني الطامح الذي لست أشك بأنك سوف ترى فيه همماً عالية وصفات نبيلة سامية تحفزك لاحترامه ، بل تحببه اليك مصادقته ، وتدفعك لأن تذرف الدمع مثل ما فعلت يوم رأيته يفارق الحياة . كما أن جانباً من نفس تولستوي يبرز بوضوح في شخصية بيير الفذة الذي يعتبره أكثر الناس، وأعتبره كذلك بحق، بطل هذه القصة العالمية .

تولستوي وتحليل الحوادث التاريخية

لا ريب في أن جانباً من عبقرية تولستوي كما تتمثل في قصة (الحرب والسلم) يتجلى في هذه الوقفات التحليلية العميقة التي يقفها على هامش القصة ليعالج فيها ما يعرض له من مسائل التاريخ ومشاكله الكبرى ، ولست بحاجة لتفصيل حوادث هذه الحقبة من التاريخ التي يعيش فيها أشخاص (الحرب والسلم) لأنها أشهر من أن توضح وتعرّف للأديب المثقف . ولست أشك في أنه لم يمرّ على أوروبا في جميع أدوار تاريخها السياسي برهة لفتت إليها الأنظار ، وأعقبت في أذهان الاوروبيين تأثيرات وانطباعات أبلغ وأعمق مما فعلته تلك الحقبة من التاريخ التي عُرف فيها نابليون قائداً عظيماً إسمه على كل لسان ، وقنصلاً ثم امبراطوراً خطير الشأن ، ولست أدري من أبعد تأثيراً في نفوس الناس وأشدّ وأعمق ، ذلك العهد من التاريخ ، أم هذه السنوات الست التي ودّعناها بالأمس وعانى العالم في خلالها ويلات أشرس حرب في تاريخ الوجود البشري .

في هذا الفصل من كتاب (الحرب والسلم) يعالج تولستوي الأسباب التي تفضي الى الحوادث التاريخية عامة ، والتي بعثت الحرب بين روسيا وفرنسا خاصة . وفيه يحاول دحض عقيدة رسّخها علم التاريخ وطبعها في الأذهان ، ودعم حقيقة خطيرة تبدو لأول وهلة غريبة ، وهي أن الرجال الذين ، في أيديهم مقاليد السياسة والادارة والحكم إنما هو في الواقع عبيد التاريخ ، يستخدمهم ويسخرهم كالادوات الصمّ لبلوغ أهدافه المقرّرة من قبل فلا يستطيع هؤلاء الحكام والقواد مقاومته في ذلك ، لأنها أهدافٌ مقضيٌ بها منذ الأزل فلا مَعدى لهم عن الاندفاع والجري مع تيّاره الجارف والرضوخ لحركته واتجاهه .

يقف فيلسوفنا من الحملة الفرنسية مندهشاً حائراً معقود اللسان ، لا يدري كيف يعلّل أسباب هذه الظاهرة العظيمة . ألوف بل ملايين من الناس في غربي أوروبا يشرعون في التجمع والاحتشاد منذ سنة ١٨١١ ويأخذون في الزحف صوب الشرق ويمعنون في ذلك فيتخطون الحدود الروسية ويكادون لا يقفون إلا في موسكو . لكنهم ما يلبثون أن يعودوا القهقرى ويرجعوا من حيث جاءوا حاملين في إيابهم بذور الخيبة والهزيمة المنكرة . يقابل ذلك ملايين أخرى تتأهب في الشرق لمجابهة أولئك ، فتندفع من أواسط روسيا ميمّمة شطر الغرب ، وفي ١٢ حزيران ١٨١٢ تلتقي هاتان الموجتان الصاخبتان من بني الانسان ، فيكون ذلك نذير وقوع حرب لم يعرف لها التاريخ من قبل نظيراً . هذا الاضطراب بين الملايين يراه تولستوي في ظاهره منافياً للعقل ومخالفاً لقوانين الطبيعة البشرية . فلا

بجرم إن وقف حائراً يبحث عن العلل الحقيقية التي أدَّت إليه .

فيستعرض الآراء التي يبديها الناس في بواعث تلك الحرب ، فيرى أن المؤرخ يعزو وقوعها إلى الإهانة التي ألحقها نابليون بالدوق أولدنبرج [1] ، وإلى عدم مؤازرة قيصر روسيا في إنجاح الحصار الذي فرضه نابليون على بريطانيا ، وإلى طموح نابليون الشخصي أو ثبات قيصر وصلابة عوده ومتانة مركزه ، وإلى أغلاط الرجال الذين يديرون دفة السياسة في أوروبا . ويقول تولستوي إذا كان أحد هذه الأسباب التي يسردها المؤرخ أم كلها مجتمعة ، هو ما أثار تلك الحرب ، فقد كان بالإمكان الحيلولة دونها بشكل ما ، كأن يخص مثلاً كل من أولئك الساسة النية والتصرُّف ويخلص في جهوده لتوطيد السلم ، فيسعون جميعاً إلى الإتفاق على نصوص المعاهدات مما قد يؤول إلى حسم أسباب النزاع واجتثاث الشر من أصوله . أو أن يخط نابليون الى الكسندر رسالة تنمُّ عن روح المودَّة الصادقة والصفاء الخالص ، معرباً فيها عن رضاه بإعادة دوقية أولدنبرج إلى صاحبها في الأصل ، إلى غير ذلك من السبل التي تطرق والجهود التي تبذل للحيلولة دون وقوع الشر أو تفاقمه .

ذلك ما يذهب إليه المؤرخ . أما نابليون فيرى أنه لم يكن ثمة بد من الصدام مع روسيا بسبب نشاط الدبلوماسية البريطانية ودسائسها الشيطانية (كما صرَّح في جزيرة القديسة هيلانة) . ثم من البديهي أن يرى أعضاء البرلمان الانجليزي طموح نابليون ونزعته الجشعة للسيطرة وحبه للسلطان ، سبباً آخر وجيهاً . وأن يعدّ صاحبنا الدوق أولدنبرج في دوره ما لحقه من إهانة ، الباعث الحقيقي والمباشر لها . وأن يرى رجال الأعمال في أوروبا سببها في النظام القارّي الصارم الذي فرضه نابليون على أوروبا وذلك بحظر المتاجرة مع بريطانيا ، مما سبب ضجراً وكدراً وتدهوراً إقتصاديًّا خطيراً في أوروبا وكذلك في روسيا . أما القوّاد العسكريون وغيرهم من رجال الجيش فيؤكدون أنه لم يكن مناص من حرب تقع لتشغل ألوف العاطلين منهم ، بينما يرى الساسة في ذلك العصر أنها نجمت عن اخفاقهم في إخفائهم عن نابليون إخفاء تامًّا بنود تلك المعاهدة السرية المعقودة بين روسيا والنمسا سنة ١٨٠٩ . زدْ إلى ذلك الصيغة الحادَّة والأسلوب الجاف الذي به خُطّ الانذار رقم ١٧٨ .

ومن البديهي أن تبدو هذه الأسباب وعشرات مثلها وجيهة معقولة لدى أهل ذلك العصر حسبما يتراءى لكل منهم ، ومن الزاوية التي ينظر منها إلى حوادث التاريخ المعاصر ، أما

---

(١) هي دوقية أولدنبرج في ألمانيا انتزعها نابليون سنة ١٨١٠ من صاحبها بطرس فردريك أسقف لوبك . وقد أبى أن يأخذها نابليون بمقاطعة ارفرت (Erfurt) فأرغم على الفرار والالتحاق بالحلفاء ضد نابليون بيد أنها عادت إليه في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ مع مقاطعة بكنفيلد Bukenfild بمؤازرة قيصر روسيا (الموسوعة البريطانية)

عن أهل هذا الزمان ، فما موقفنا منها ؟ أحرى بنا أن نراها عقيمة تافهة لا وزن لها ولا خطر ، فلا تقنع الباحث المفكر منا أو تنقع غلته . ذلك لأن المعاصرين لتلك الأحداث التاريخية العظيمة لم يكونوا في الواقع يبصرون من الحرش غير الأشجار على حد التعبير الانجليزي في حين أننا ، بسبب البعد الزمني نكاد نبصر الحرش بكامله .

ويعالج تولستوي جميع هذه الأسباب مبيناً صعوبة بل استحالة الأخذ بها رغم زعمه بأنه ليس بالمؤرخ المحقق . ويعتقد أن كل سبب ظاهر للحملة الفرنسية قد يبدو بحد ذاته معقولاً مقبولاً ، بيد أنه ليس كذلك حين يقاس بخطورة الحوادث المنبثقة عنه . إذ لا يعقل أن يبلغ سبب واحد حداً كبيراً من القوة والتأثير بحيث يجاب على العالم الأوربي أحداثاً خطيرة كتلك . لهذا يؤكد تولستوي أن تكون هناك أسباب أخرى عديدة عملت جميعها يداً واحدة وتساندت وتآزرت . وربما سلكت في بدء الأمر سبلاً شتى ، إلا أنها لم يكن لها مناص من الالتقاء أخيراً في طريق واحد ، والتضافر والسعي نحو تحقيق هدف واحد هو ذلك النزاع والاضطراع الذي أمسى وقوعه حتماً . ويخيّل لتولستوي أن رغبة جندي واحد في القتال أو عنه لسبب يبلغ من الوجاهة والخطورة والتأثير حداً لا يقل عما بلغه رفض نابليون سحب قواته عبر نهر الفستولا ، نزولاً على طلب الكسندر كشرط أساسي لوقف القتال . بل انه لا يقلّ قيمة وخطراً عن رفض نابليون اعادة دوقية أولدنبرج لصاحبها إذ لو أبى جندي واحد الانخراط في سلك الخدمة العسكرية أو عدم المضي في العمل في أحد أدوارها وفعل ذلك ثانٍ وثالث وغيرهم لأدّى ذلك إلى نقص في عدد رجال الجيش وبالتالي إلى عدم اقدام أحد العسكريين على المجازفة بقبول الحرب ، أو استئنافها في أحد مراحلها بأية حال .

فقد كان من اليسير تجنّب هذه الحرب على هذا الأساس من التعليل الخاطىء لو لم يرَ نابليون تحدّياً واساءة في طلب القيصر سحب قواته وراء الفستولا . فيأمر جنوده بالهجوم لمحو تلك الاساءة . وكان هيّناً أن يُحال دون وقوعها لو رفض الضباط والجنود العمل في إحدى مراحل الخدمة العسكرية . والحرب ما كانت لتقع قطّ لو أحبط نشاط الدبلوماسية البريطانية كما زعم نابليون ، أو لو انه لم يكن في الوجود رجل اسمه الدوق أولدنبرج ، أو لو ان الكسندر لم يغضب لكرامته بسبب امتهان نابليون له كما يدّعي ، أو لولا انه لم يقمْ في روسيا آنئذٍ حكمٌ فرديّ مطلق ، أو لولا اندلاع لهيب الثورة الفرنسية من قبل ، وما تلا ذلك من قيام دكتاتور وامبراطورية ، أو لولا جميع الظروف والأحوال التي أدّت إلى تأزّم الوضع السياسي بسبب الحالة الاقتصادية والاجتماعية مما أفضى إلى الثورة

الفرنسية . والواضح ان ليس ثمة سببٌ واحدٌ من هذه الاسباب التي يذكرها . الناس إلاّ أمكن معالجته بمفرده والحيلولة بواسطته دون وقوع الحرب . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها انه لم يكن له سببٌ واحد أو عشرة ، وإنما هذه الاسباب كلها والوفٌ غيرها من المنظورة وغير المنظورة الظاهرة والباطنة ، جميعها عملت معاً وسلكت سبيلاً واحدة ، فأنتجت تلك الحرب وتلك الحرب الهائلة التي ما زال يتردد صداها في نفوس الناس وعقولهم في أوربا وفي أسيا كذلك .

وقد يتوهم المرء ان وقوع الحرب الروسية — الفرنسية كان متوقفاً على ارادة القيصر أو الامبراطور وحدهما لا غير . والحقيقة انه كان يتوقف على ارادة ملايين البشر الذين في يدهم منفردين ومجتمعين السلطة الحقيقية والتأثير البعيد كالجنود الذين رضوا لا نفسهم ان تقدّم على مذبح المريخ ، والرجال الذين رافقوا الجيش وأمدّوه بالمؤن والمعدّات الكافية ، والعمال الذين صنعوا له كلّ لوازمه وهيأوا حاجاته ، والمدنيين الذين دعموه وعضدوه بموازرتهم الادبية والمادّية ، ومئات الالوف غيرهم مما لكل منهم من تأثير مباشر أو غير مباشر في سير تلك الحرب في روسيا وفي فرنسا بل في جميع أوربا .

وما دام الامر على هذه الشاكلة ، فلا عبص من الرجوع إلى القدرية كعقيدة أساسية يستند اليها في تعليل أسباب تلك الحرب بل كل حرب في التاريخ لا يستطيع العقل احصاء أسبابها . إذ كلما حاولنا ردّ تلك الحرب إلى بواعثها الحقيقية وقصدنا تحليلها إلى عواملها بشكل منطقي كلما لاحت لنا بعيدة عن العقل خارجة على قواعد المنطق ، أو تبدّت كأن ليس من سبب ظاهر لها تفهمه وتقبله وتبرره .

ويقول تولستوي شارحاً القدرية ان لكل امرىء في الحياة مطلق الارادة وملء الحرية في تأمين أهدافه الشخصية والسعي كيف أراد إلى بلوغ تلك الاهداف فيأتي من الافعال ما قد يقرّبه من تحقيقها ، ويعرض عمّا يقصيه عنها . والواقع انه حالما يصدر عنه عملٌ ما خطير أو قولٌ له قيمة ، فانه في تلك اللحظة ذاتها يفلت من يده ويخرج من نطاق سلطته وسيطرته ، بحيث لا يستطيع استرجاعه ، فيدخل في نطاق الماضي أو بعبارة أخرى في نطاق التاريخ ويصبح لذلك القول بعد الافضاء به أو العمل بعد أتيانه تلك الخطورة الاجتماعية والاهمية المقدّرة المحتومة والمقيّدة المحدودة . من هذا نستنتج ان لحياة الانسان مظهرين مختلفين ، مظهر الفرد وهو ما يتعلق بحياته الفردية المستقلة ، التي كلما انطلقت وتجردت في مهامّها وأمورها وأعمالها تحرّرت وأبت التقيد بقاعدة أو الارتباط بقيد . ثم مظهر العضو ، وهذا يتعلق بالحياة الاجتماعية المنصرية . وفيه يرى المرء نفسه مكرهاً عليها

رضوخاً لقوانين شرعت وقواعد وتقاليد فرضت ووضعت ، وليس من سبيل الى التحرر منها . فالانسان في المظهر الاول يكاد يعيش حياته لنفسه ، وفي سبيل تحقيق أهدافه الفردية واعياً مستقلاً إذا أحب . ولكنه يبدو في المظهر الثاني كأنه ألعوبة في يد غيره، أو كأنه آلة تعمل دون فهم أو وعي في سبيل تحقيق أهداف تاريخية كونية تتعلق بمجتمعه الخاص أو بالانسانية جمعاء .

* * *

وهنا نرى كيف يدخل عامل الصدفة في المظهر الاجتماعي من حياة الانسان ، فقد تقع حوادث وتجيء أعمال ملايين من الناس في حين واحد ، فتدخل جميعها في نطاق الماضي الذي هو التاريخ، وتسبب كلها بمجموعها قوة هائلة لها تلك الأهمية والفعّالية التاريخية وكلما سما المرء منصباً وارتقى في سلّم الحياة السياسية أو الاجتماعية ، كثر الناس الذين يحيطون به ويلتفون حوله ، وكلما ارتفعت مكانته وتضاعفت سلطاته اتضح لنا بجلاء انه خاضع لسلطة القضاء في جميع ما يصدر عنه من أقوال أو أعمال لها علاقة بالمجتمع أو بغيره من الناس ، ليس له أدنى نصيب من القوة والارادة الحرة المستقلة في ذلك .

إن قلب الملك في يد الله ، والملك هو عبد التاريخ ، والتاريخ الذي هو الحياة الاجتماعية العامة غير المدركة أو الواعية انما يستغل كل لحظة من حياة الملك ويستخدمها في سبيل تحقيق أغراضه التي لا تدرك ولا ترى، فمع أن نابليون يعتقد اعتقاداً جازماً بأن إرادته وحده كان يتوقف مصير كل ما يجري حوله من أحداث سياسية وأعمال عسكرية ، وانه وحده مسؤول عن سفك دماء الملايين من الأبرياء (كما عبر ذلك قيصر روسيا في رسالة بعث بها الى نابليون) إلا أن تولستوي يعتقد جازماً بأن نابليون لم يكن في حين ما أكثر من ذاك مستسلماً لمشيئة القضاء ، مكرهاً على طاعته ، يسيره القدر ويوجهه أنى شاء ، وكيفما شاء ، ويسوقه رغم أنفه ، مع ظن نابليون بأنه يعمل وفق ارادته الشخصية ، الى السير في سبيل واحد مع مجموعة المظاهر الاجتماعية لحياة الأفراد الذين يمثلون شتى الأدوار على مسرح الحياة .

لقد زحف أهل الغرب نحو الشرق في حركة خطيرة الشأن مستهدفين تقتيل اخوان لهم من بني الانسان . فنقف من هذه الظاهرة مندهشين باحثين ، نبحث عن الأسباب التي أدت الى مثل هذا الشر الاجتماعي . فيجيب تولستوي بأن ألوفاً من الحوادث الدقيقة جاءت صدفة في حين واحد ، ووقعت في الوقت الملائم ، وانتظمت كما في عقد لاحداث تلك الحركة الشريرة الزاخرة ، فسخط نابليون على روسيا لخروجها على قواعد النظام القاري ، وما حل

بالفوز والمرح من اهانة وسوء . وكذلك زحف نابليون على روسيا للحصول على سلم مسلح كما خيل له ، ثم رغبة نابليون الحربية كما تجيء في وقت يختلج فيه في صدور أبناء فرنسا ميل للحرب ورغبة في القتال . وانبهار المدنيين منهم بعظمة الاستعداد الحربي ، وطمع الكثيرين منهم في غنائم وأسلاب تعوض عليهم ما انفقوه في سبيل ذلك الاستعداد. هذا مع ما لاقاه نابليون من تكريم حلفائه ملكي روسيا وسكسونيا وأمبراطور النمسا له في درسدن واحتفائهم به طيلة شهر ، مما زاد في عجرفته وزهوه وخيلائه وغذى نزعته العسكرية وقواها . وكذلك المفاوضات الدبلوماسية التي عقدها الساسة للوصول الى سلم شامل دائم ، فأعقب وعد كل منهم بالتضحية في سبيل ذلك مسًّا لكرامة الدولة التي يمثلها وجرحاً لكبريائها . هذه وملايين من الاسباب تهيأت واجتمعت حسب قانون المصادفة وتكيفت على غرار أدى الى تلك الحرب الكاسحة .

حين تنضج التفاحة على الشجرة وتسقط ، نسأل عما سبب ذلك السقوط . هل هو جاذبية الارض ، أم ما أصاب ساقها من يبس وجفاف ، أم الشمس التي ساعدت في انضاجها ، أم الريح ؛ أم لأنها أضحت ثقيلة لا قبل للغصن بها ولا طاقة له على حملها ، أم لأن هناك صبيًّا واقفاً ، يرنو اليها عن بعد ، وكل جارحة في نفسه تدعو لها بالسقوط . الواقع أن لا واحد من هذه هو السبب الوحيد بمفرده بل ان تصادف مجيء الظروف ووقوع الحوادث والتفاعلات العضوية والعنصرية في حين واحد هو ما أدى الى ذلك السقوط فكما أن العالم النباتي يعزو سقوط التفاحة إلى تعليله العلمي ، فكذلك يزعم صبينا بأنه انما ناشيء عن دعواته الحارة .

* * *

ليس الملوك والقواد والساسة العظام الا عناوين لعصورهم وأزمانهم وأسماء لحوادث التاريخ التي تقع في عهودهم . ولا تزيد الصلة بينهم وبين تلك الأحداث والعصور عن تلك التي بين الملاح في القارورة وبين الايضاح الملصق عليها من الخارج . بل لا تتعدى قوتهم وسيطرتهم على الحوادث ، وتوجيه سير التاريخ قوة طفل يعدو به الحصان مسرعاً فلا يملك من القوة ما يمكنه من كبح جماح ذلك الحصان وضبطه واخضاعه .

فالتاريخ جارٍ على الدول بقوة دافقة نحو الأمام . والفرد بل الملك أو القائد أو السياسي لا يستطيع سد هذه الحركة أو توجيهها . بل انه في كل ما يصدر عنه من أعمال أو أقوال انما يعمل ذلك خاضعاً مندفعاً مع تيار التاريخ الغلاب في سبيل معين نحو هدف مقدر محتوم كما أسلفنا ، ومقضي به منذ الأزل .

سير التاريخ

بسطنا فيما مرّ رأي تولستوي في تعليل الحوادث التاريخية ، وملخصه أن من نحسبهم رجال التاريخ هم في الواقع عبيد التاريخ الأرقاء ، لا يملكون القوة التي بها يضبطون حوادث التاريخ ويخضعونها لارادتهم ويوجهونها وفق مشيئتهم . وفي ما يلي سوف أراجع فصلاً عقده فيلسوفنا في سير التاريخ الدائم وحركته المستمرة .

فتولستوي يرثي للعقل البشري لعجزه عن ادراك هذا الاستمرار الدائم المطلق لحركة التاريخ ، أو معرفة القوانين التي يخضع لها كل عنصر من عناصر الحركة منفصلاً عن الآخر غير حاسب انه من جراء هذه التجزئة المصطنعة سوف يقع في هوّة سحيقة من الحيرة والارتباك والخطأ الكبير . ويستعين تولستوي على توضيح رأيه بالأسطورة اليونانية المعروفة التي شغلت أذهان الأقدمين وبلبلت عقولهم مدة من الزمن أعني بها أسطورة (أخيلا والسلحفاة) . وأظنك تذكر أن أخيلا لم يستطع ادراك السلحفاة رغم محاولته اللحاق بها ، ذلك لأنه كان يسير بمعدل من السرعة يعدل عشرة أمثال تلك . فكلما قطع أخيل المسافة بينه وبين السلحفاة ، وجدها قطعت عشر المسافة أمامه . وحين تقطع ذلك العشر تصبح على بعد واحد من مئة عنه . وهكذا دواليك مما يدل ظاهراً على استحالة ادراكه لها ، وقد غرب عن بال الأقدمين وهم يتدارسون هذه المسألة ويبحثون عن حل لها ، انهم قد ضلوا سبيل الهدى مذ جزأوا المسافة كلها الى أجزاء منفصلة بينما حركة أخيل والسلحفاة معاً استمرار واحد منطلق لا سبيل الى تجزئته . وقد نقرب من حل هذه المشكلة التي تبدو معضلة بتقسيم الحركة الى عناصر متناهية الدقة والصغر . بيد أننا لن نصل إلى حلّ تام بغير جمع حدود المتوالية الهندسية اللانهائية الناجمة عن تجزئة الحركة إلى فترات يرتبط بعضها ببعض بنسبة واحد على عشرة ، التي هي نسبة سرعة السلحفاة الى سرعة أخيل .

وتولستوي لا يقسو في حكمه على الأقدمين لعجزهم عن فهم ما تنطوي عليه هذه الأسطورة من مغالطة وسفسطة ، ذلك أنهم لم يكونوا يلمّون بهذا الفرع من الرياضيات العالية الذي يسهل عليهم الوصول إلى حلّ يروي الغليل ويرضي العقل . وإننا حين نبحث عن القوانين التي تسيّر التاريخ وتوجه حركته ، إنما نقترف مثل ذاك الخطأ الذي فيه وقع

الأقدمون بسبب معالجتهم عناصر عديدة مختلفة للحركة بدلاً من وحدة تامة مستمرة . فحركة التاريخ الناشيء المتكون من مجموعة من الإرادات والرغائب البشرية العديدة ليست إلاّ حركة دائمة السير لا انقطاع لها ولا انفصال بين الأجزاء والعناصر التي تتألف منها .

وعلم التاريخ يسعى جاهداً إلى معرفة هذه القوانين التي تضبط حوادث التاريخ وتوجِّه سيره . وهي كذلك الهدف الأسمى لعلماء التاريخ في جميع دراساتهم وجهودهم الفكرية العنيفة . بيد أنهم يستسهلون تجزئة الحركة ، حتى يعالجوها ، إلى وحدات منفصلة فيقعون بسبب ذلك في حيرة ويضلُّون سبيل الرشاد .

وأول نهج يختاره علم التاريخ ويسلكه لتحقيق هذا الهدف يكون باختيار سلسلة من الحوادث المستمرة يفحصها علماؤه ويدرسونها ، إحداها منفصلة عن الأخرى . مع العلم أن ليس هنالك نقطة ابتداء واضحة معيَّنة لأي حادث تاريخي . ذلك لأنَّ كل حادث يتسبَّب عن آخر سابق له ، وينبعث منه ، ويتولد عنه . وعملية الانبثاق والتوليد هذه في استمرار دائم مع الزمان في سيره .

وأما النهج الثاني لعلم التاريخ في سعيه لمعرفة القوانين التي تضبط سير التاريخ فذلك بأن يقع اختيار علمائه على أقوال فرد واحد وأعماله لتتخذ موضوعاً للدرس والبحث والتنقيب ، مفترضين أنَّ الأعمال والأقوال الصادرة عن فرد واحد تساوي مجموعة إرادات أفراد عديدين أو مشيئة أمة بكاملها . بينما من الواضح أنه لا يمكن لشخصية تاريخية واحدة بالغة ما بلغت من العظمة أن تجمع في ذاتها رغائب ومشيئات كثيرة . وكلا السبيلين لا يفضيان بعلم التاريخ إلى بلوغ هدفه الأسمى ، لأنه في كلا الحالين يختار وحدات صغيرة للفحص والتدقيق . ومهما كانت درجة أهمية الحوادث التاريخية ، فإنَّ دراسة كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى ، أو الظنّ بوجود نقطة ابتداء معيَّنة لكل حادث تاريخي ، أو الزعم بأن إرادة أمة بكاملها يستطيع فردٌ واحد أن يعبر عنها تعبيراً صادقاً هو خطأ فاضح وخطل في الرأي وضلال ، بل أنه مضيعة للجهد والوقت اللذين ينفقهما الباحث في هذا السبيل . فالخمس عشرة سنة الأولى من القرن التاسع عشر شهدت في أوروبا ملايين من الناس يرحلون مثقل عيشهم ويعبرون من طرف أوروبا الغربي الى الآخر الشرقي ، فيتقاتلون

ويتناحرون ، فيفوز أحد الفريقين تارة وينخذل أخرى ، ويمسون جميعاً فرائس الضجر والكدر واليأس والمأزق . ولعدة سنين تخال وجه الحياة ونظامها قد تغير بسبب هذه الحركة التي تنشط في بدء الأمر ، ثم تتباطأ وتخمد وتتلاشى كأنها لم تكن . فيسأل العقل عن الباعث لذلك وعن القوانين الضابطة لهذه الحركة العنيفة الهائلة ، فيذكر التاريخ جواباً على ذلك أفعال وأقوال نفر من الناس اجتمعوا في أحد بيوت باريس مسمياً تلك الأقوال والأفعال (الثورة الفرنسية) . ثم يتجاوز ذلك الى سرد ترجمة ضافية لحياة نابليون ولكل من خصومه وأعوانه ، شارحاً مدى تأثير الواحد منهم في الآخر ، وفي الأحداث المعاصرة لهم جميعاً ، مؤملاً إنك في ذلك سوف تجد الجانب الأكيد لتلك الحركة الزاخرة ، وأن تكتشف القوانين التي تضبطها وتسيّرها والعقل لا يرد هذا التعليل ردّاً أو يرفضه بكامله رفضاً فحسب ، وإنما يتعدّاه إلى التنديد بهذه الطريقة العقيمة من البحث والتعليل الذي ينطوي على كذب وتمحك وخداع ، ذلك لأنها تبرهن على وقوع حادث قوي عنيف من جرّاء حادث ضئيل ضعيف . فالواقع أن قيام الثورة الفرنسية ، وظهور نابليون قد نجما عن مجموعة من الإرادات الفردية التي أذنت للثورة ولنابليون بالظهور في عالم الوجود التاريخي ، والجري مع الأحداث المندفعة في حركة دائمة ، وتساهلت في قبولها في أول الأمر ، بيد إنها عادت ونبذتهما ، وقضت على الثاني منهما قضاء مبرماً ، لأنهما لم يعودا يصلحان لخدمة التاريخ وتحقيق أهدافه في ظروفه المتبدلة وللتاريخ في ذلك شأن لا نعرفه ، وهدف يسعى لتحقيقه نجهله كل الجهل . وله فوق ذلك ارادة حديديّة لا تخضع لسلطان الفرد مهما بدا في حين ما عظيماً في أعين الناس . ويزعم التاريخ أنه مع كل فتح لا بدّ من فاتح ، وفي كل ثورة لا بدّ من رجال يضرمون أوارها . فيجيب العقل جازماً ساخراً ، ولكن ليس ثمة ما يدلّ على أن الفاتح أو الثائر هما سبب الفتح والثورة ، ذلك لأن قواعد الحرب أو الثورة لا يمكن أن تتركز في جهود فرد واحد ونشاطه. ومثل علم التاريخ في تعليله هذا وأسلوب بحثه كمثل من ينظر إلى الساعة فيرى عقاربها تشير إلى العاشرة ، فيسمع عندها أجراس الكنيسة تقرع ، فيظن بل يجزم أن قرع الأجراس سببه وصول العقارب الى العاشرة . كأن هنالك آصرة أو علاقة وثيقة بين حركة العقارب والوضع الذي تتخذه ، وبين قرع الأجراس . أو كمثل القطار تراه

بهم بالسير فتسمع آنئذٍ صفارة الايذان بالسفر تدوي ، والصمامات تفتح والدواليب تتحرك ، فتظن أن هذا الصفير وانفتاح الصمامات وتحرك الدواليب هو علة حركة القاطرة وسببها الحقيقي . ومثل هذا أيضاً اعتقاد الفلاحين في روسيا بأن هبوب الرياح الباردة في أواخر فصل الربيع قد نتج عن ظهور براعم الزهر على شجر البلوط . ومع أننا نجهل السبب الذي حدا إلى مجيء الرياح وظهور البراعم في حين واحد فليس ثمة ما يدل على أن هبوب الرياح ناشئ عن هذه البراعم . إذ كيف يصح ذلك ما دامت الريح على حظ وافر من القوة والشدة بحيث لا يؤثر فيها ظهور البراعم الصغيرة اللطيفة .

اننا في جميع هذه الاحوال إنما نرى حظ المصادفة في وقوع الحوادث كالذي يجري في جميع نواحي الحياة ليس أكثر . ومهما أنعمت النظر في عقارب الساعة وتفحصت صمامات القطار ودواليبه وشجر البلوط وبراعم زهره ، وبالغت في الملاحظة والدرس ، فانك لن تعرف السبب الحقيقي لقرع الاجراس وتحرك القطار وهبوب الرياح في أواخر فصل الربيع عن هذا الطريق . وما عليك لكي تتوصل الى معرفة ذلك الا أن تبدل وجهة نظرك بالكلية ، وان تنهج نهجاً آخر في الدرس والتمحيص ، فتحاول معالجة القوانين التي تضبط حركة البخار وقرع الاجراس وهبوب الرياح وتقيدها وتسيرها .

ولكي تتكشف لك القوانين التي تضبط التاريخ وتسيطر على حوادثه وتوجه حركته لا بد لك أيضاً من تبديل موضوع الملاحظة وحقل الدرس واتجاهه تبديلاً تاماً ، وانتهاج سبيل آخر للوصول الى الحقيقة . وذلك بأن تدع الملوك والوزراء والقواد جانباً ، وان تلتفت الى العناصر الدقيقة العامة والعوامل المؤثرة التي تحفز الشعوب وتحرك الجماهير فانها هي التي تصنع التاريخ ان لم تكن التاريخ نفسه .

ومع أن مدى التقدم في الوصول الى فهم قوانين التاريخ عن هذا السبيل لا يزال قاصراً محدوداً لا يبعث على الرضى والارتياح ، الا أن اثنين لا يختلفان في أنه السبيل الأوحد المفضي الى هذه الغاية النبيلة وان جهود المؤرخين في هذا المضمار لمن القلة والضآلة والضعف ، بحيث لا تقاس بجهودهم الجبارة في وصف وتفصيل وتحليل أعمال القواد والوزراء والملوك ، والانتهاء من ذلك كله الى نتائج وهمية خيالية لا يرضى بها العقل .

(السلط — شرق الاردن) عيسى القسوس